اجتهادات
ضد الحربِ أم معها؟

يحتاجُ الإبداعُ الأدبى والفنى إلى أجواء الحرية. ويصعبُ تصور ذلك فى أوقات الحرب. فعندما تندلعُ حربُ ما تَخلقُ, أو تُخلقُ بذريعتها, حالةً هستيرية، فلا يعلو صوتُ فوق أصوات السلاح والقتال والقصف والدمار. ولهذا يقفُ الأدباء فى الأغلب الأعم ضد الحروب، وإن كان بعضُهم استطاع أن يُحوَّل مآسى قتال دموى إلى أعمالٍ أدبية رائعة. فتاريخُ الأدب والحرب لا يخلو من مفارقاتٍ تدلُ على أنهما ليسا متعارضين دائمًا. فوز ونستون تشرشل بجائزة نوبل للآداب عام 1953 يحملُ ضمنًا معنى مكافأة المحاربين، رغم أن اللجنة المانحة حينذاك لم تقصد ذلك. فلم يكن أمرًا طبيعيًا منحُ جائزة الآداب لسياسى وضابط سابق لعب الدور الأكبر فى انتصار بريطانيا وحلفائها فى الحرب الثانية، حتى إذا كان مدافعًا فى الوقت نفسه عما سمى فى قرار منحه الجائزة (القيم الإنسانية السامية).

ويجتمعُ الأدب والحرب, أكثر ما يجتمعان, فى حالة انخراط أدباء فى قتالٍ دفاعًا عن بلادهم، أو اعتقادًا فى أنهم يقفون إلى جانب الحق والحرية. ويُعدُ تلستوى أحد أبرز من حاربوا من أجل بلادهم، فقد شارك فى حرب القرم عام 1853 واستلهم من تجربته تلك, وخبرات أخرى, فكرة رائعته «الحرب والسلام» الصادرة عام 1869.

وربما يكونُ جورج أورويل أهم من قاتلوا دفاعًا عن الحرية. فقد ذهب إلى إسبانيا لتغطية الحرب الأهلية فيها عام 1936، ولكنه لم يلبث أن تطوع فى إحدى فرق القوى الثورية التى حاربت الفاشية، وأنتجت تجربتُه تلك عملا رائعًا تُرجم إلى العربية مرات تحت عنوانين هما «الحنين إلى كاتالونيا»، و«تحية لكاتالونيا». ومن مفارقات تلك الحرب أن الأديب الإسبانى كاميلو خوسيه كان مقاتلا فى صفوف القوى الفاشية، قبل أن يراجع موقفه. وأنتجت تجربتُه، بدوره، رواية «لحن ماثوركا على ميتين». وقبلهم, وفى بواكير الأدب الحديث, كان التحاقُ سيرفانتس مؤلف «دون كيشوت» بالبحرية الإسبانية أحد مكونات رؤيته الأدبية.

والمستفادُ من سير هؤلاء الأدباء، وغيرهم، أن تجاربهم الحربية ألهمتهم إبداعًا أدبيًا متفاوتًا. وهذه هى الحالة التى لا يتعارضُ فيها الأدبُ مع الحرب، بل ينهلُ من مآسيها.